تاريخ ما بين السطور
ما قبل هدير الفيل

رمضان مصطفى سليمان

لم يكن الفجر في صنعاء يشبه أيَّ فجرٍ مرَّ بها من قبل ، كانت الشمس تتردّد خلف قمم الجبال ، كأنها تخاف أن تطلّ على بلدٍ تتنازعه الظنون ، وتنتظر فيه البشائر عن ملكٍ يهوديٍّ قد خارت قواه ، وجيشٍ حبشيٍّ يزحف مثل موجٍ أسودَ على البحر.

كنا نحن أهل اليمن نرقب ما سيفعله الأحباش بذي نُواس ، الذي كان قبل أسابيع فقط يتباهى على منصّات قصره ، مزهوًّا بضحكاته الحادّة ، قاطعًا الهواء بحركة يده مطمئنًا وزراءه:

" سأبيدهم، وسألقّن النجاشي درسًا يرنُّ صداه في بيزنطية نفسها ".

لكن المشهد تغيّر مثل انقلاب الريح.

ها هو ذو نواس الآن - الذي كان يزمجر كالنمر - يرتجف في قصره ، يمرّر أصابعه على لحيته الكثّة ، ويضرب الأرض بقدمه كأنه يريد أن يوقظ فيها ما تبقّى من هيبة.

اقترب وزيره زولر ، المخادع الذي كان يوسوس كشيطانٍ ينسج الخديعة بخيْطِ نصيحة ، فقال ذو نواس ، بصوتٍ متقطّع :

وكيف حال الجيش يا زولر؟

ابتسم الوزير ابتسامةً خفيفة بين اليأس والسخرية ، وقال :

أيّ جيشٍ تتحدّث عنه يا مولاي ؟ لقد فرَّ رجالُك، تشتّتوا في الجبال رعبًا من جيش أرياط . حتى يهود صنعاء لزموا بيوتهم وقالوا : لا طاقة لنا اليوم بالنجاشي ولا برجاله.

شحب وجه الملك ، كأن دفء الدم انسحب عنه.

فماذا ترى لي يا زولر ؟ أنت الذي حرضتني من قبل على قتل نصارى نجران وظفار، الآن تتخلى عني ؟

لست أتخلى ، يا مولاي . ولو أردت الآن أن نتصدى لجيش الحبشة ، لاتّبعتك دون تردد، ولكن..

قاطعه ذو نواس بنظرة مكسورة:

نتصدى لجيش أرياط الذي لا يرحم ؟ انظر لي غير هذا،

تنهد زولر:

ليس أمامنا إلا التشتت في التيه.

التيه ؟ وهل نعود إلى كتب أسلافنا ؟، لكن، نعم، ربما هذا أفضل من الموت حرقًا أو تحت أقدام الفيلة، ثم أليس هذا قضاء الله في كل يهودي ؟ التيه،

كانت كلمات الملك تهوي في القاعة كأحجارٍ منحدرة من جبل.

في داخله ، كان تيارٌ آخر من الوعي يعصف :

هل انتهت مملكتي ؟ هل آن أوان أن أصبح أسطورةً تُروى أو لعنةً تُنسى ؟ أيُّهما سيخلّده التاريخ ؟

وبينما تتقاذفه الأسئلة، كان زولر ينظر بعيدًا ، كأنه يرى مصيرًا لا يريد أن يراه الملك.

ثم، اختفى الاثنان.

تلاشى ذو نواس وزولر كما يتلاشى دخانُ نارٍ خمدت.

+

أسطورة الهروب

تنازع الناسُ في خبره.

قال بعض يهود صنعاء - المولعون بصناعة بطولات من الهواء - إن ملكهم قاتل عند سيف البحر ، وصمد حتى هلك تحت أقدام الفيلة ، كشهيدٍ يرفض الخيانة .

أما نصارى اليمن فقد أكدوا أنه شوهد يفرّ مع زولر ناحية الشرق ، يلهثان ، لا يلتفتان ، يريدان الوصول إلى الأرض الفارسية عبر الخليج.

الحقيقة؟ لا أحد يعرف .

والتاريخ يحبُّ الغموض، لأنه يمنحه سلطانًا أكبر.

+

خلص البلد للجيش الحبشي.

ودخل أرياط صنعاء دخول المنتصر الهادئ ، لا يرفع صوته ، كأن النصر عنده عادة قديمة .

واستقبله نصارى اليمن بالهدايا والولائم ، فقد أعاد لهم بيوتهم وكنائسهم ، ورفع المظلمة عنهم ، فأشرق في وجوههم نورٌ من أمل.

مرّت الشهور ، ثم جاء أسقف صنعاء أسطونيان إلى معسكر أرياط ، وقد بدا عليه الوقار الذي يكتسبه المرء حين يمشي فوق أطلال الخوف.

قال وهو ينحني تحية :

أيها القائد المبجّل، نصارى اليمن لا ينسون لكم ما فعلتم. انتقمتم لإخوانكم ، ورددتم لهم حصونهم ، وأقمتم ما تهدم من الكنائس والبيع.

أرياط - وكان قد علم من جواسيسه لماذا جاء الأسقف— أجابه مراوغًا ، بابتسامةٍ محسوبة :

سيرى أهل اليمن ، كلهم ، من الإدارة الحبشية ما يسعدهم ويسعد ذراريهم.

رفع الأسقف رأسه ، ونظر إليه نظرة رجلٍ يجسّ نبض حجر:

ولهذا ، أيها القائد المبجّل ، أرسلوني إليك، لتوفي بوعدك.

وما ذاك؟ لا أذكر أني وعدت بشيء.

قال الأسقف بثباتٍ أقلّ مما حاول إظهاره :

بل وعدتَ أن يغادر الأحباش اليمن بعد الانتقام من ذي نواس، وأن تعودوا إلى الحبشة.

هنا تغيّرت ملامح أرياط. شعر الأسقف أن الهواء في الخيمة صار أثقل.

عودتنا للحبشة مرهونة بأمر النجاشي . وقد قال لنا : لا تعودوا قبل أن تُحقّقوا كل أهداف الحملة.

قال الأسقف :

وقد تحققت ، فيما يرى الناس.

ضحك أرياط ضحكة قصيرة:

يا سيدنا الأسقف، قدمنا اليمن في مهمة دينية أولًا ، ولم نفرغ منها بعد . هكذا قال صديقي الكاهن الأكبر، إبرهة.

هنا دخل اسم إبرهة في الهواء كالسهم.

قال الأسقف، محاولًا كتم انزعاجه :

لقد عادت الكنيسة اليمنية هيبتها ، ولا أرى للكاهن إبرهة مهمة أجلّ من ذلك.

لكن أرياط أشار بيده كمن يبعد ذبابة :

في ذهن الكاهن أفكار كثيرة، أنتما ـ أنت وهو ـ أعرف بهذه الأمور. فاذهب إليه واسأله.

+

ذهب الأسقف إلى دار إبرهة.

كانت الدار أشبه بخلية نحلٍ فكرية : قساوسة ، كهنة ، خرائط للجزيرة العربية ، وصوت إبرهة جهوريٌّ يتردّد قبل أن يظهر بنفسه.

قال إبرهة وهو يفتح ذراعيه :

مرحبًا بصديقنا الأسقف، ماذا جاء بك ؟

جئت أسألك عمّا قاله لي أرياط، قال إن مهمتكم الدينية لم تنتهِ بعد.

ابتسم إبرهة ابتسامة من يعرف أنه يمسك بخيوط اللعبة :

صدق. لقد رممنا كنائسكم ، ورددنا ما هدمه ذو نواس، لكن هذا نصف الحملة.

اقترب الأسقف خطوة:

وما النصف الثاني ؟

رفع إبرهة يده ، كمن يرسم مستقبلًا في الهواء:

التمكين للنصرانية في اليمن وما حولها ، نشر الرهبان بين القبائل الوثنية، دعوة إلى ملكوت السماء، تغيير وجه هذه الأرض.

ارتبك الأسقف . تجلّت في عينيه مخاوف الرجل الذي يعرف طبيعة قومه.

أيها الكاهن، هذه مهمة طويلة ، تمتد لأجيال . وكنيستنا الآن قادرة على القيام بها، أخشى أن ,,

تخشى ماذا؟

كان صوت إبرهة كالسيف.

تلعثم الأسقف:

أخشى أن يرى أهل اليمن في رجالك ما كانوا يرون في الملك اليهودي، كانوا يخافونه ويكرهون حكمه.

ضرب إبرهة الطاولة بيده :

لا تُساوِ بيننا وبين اليهودي ! رأيتم ما فعل بكم، ولم تكن معه قوة كقوتنا. أتأبون حكمنا وقد ذللتم قبله ؟

تراجع الأسقف خطوة، ثم خطوتين.

أدرك أن اليمن دخلت فصلًا آخر، فصلاً بلا عنوان بعد.

+

كان إبرهة وحده تلك الليلة.

جلس أمام المصباح ، يغمغم بكلمات لا يسمعها أحد.

" اليمن، هذه الأرض التي يشتهيها النجاشي ، ويهابها الفرس ، ويراقبها الروم . أرضٌ لو ملكتها ملكت طريق البحر ، وصدارة القوافل ، ومفاتيح القربى إلى بيزنطية ".

" أأعيدها لأهلها ؟ لماذا؟ هل يعيد الأسد الفريسة للغزال ؟ "

أريد كنيسة، كنيسة يهتز لها العرب كلما مرّوا ، كنيسة تُصغي لها مكة نفسها، مكة ! تلك القرية الصغيرة التي يتجمع حولها عرب الرمال. لماذا يُحجّون إليها ؟ حجرٌ أسود وصخور، بينما نحن لدينا الصليب والإنجيل. كم أكره أن أرى العرب يطوفون حول الكعبة ولا يلتفتون إلى كنائسنا " !

كان صوته يمتزج بتيار أفكاره ، يتصادم ، يتوالد ، حتى صار مونولوجًا داخليًا لا يفصله عن الجنون إلا خطوة .

" سأبني كنيسةً لا مثيل لها، كنيسة تجعل العرب ينسون الكعبة، وتجعل النجاشي يخلّد اسمي ".

ثم ابتسم. ابتسامة الرجل الذي وجد طريقه.

+

خارج دار إبرهة، كان أهل اليمن يتساءلون :

هل سيبقى الأحباش ؟ هل سيبنون كنائس جديدة ؟ هل سيجرّون البلاد إلى صراعٍ جديد ؟

كانت الرياح تهب محمّلة برائحة البحر، وكان الناس يشعرون أن شيئًا أكبر من جيوش الحبشة يتحرك في الأفق، شيءٌ لم تتضح ملامحه بعد ، لكنه قريب، قريبٌ جدًا.

لم يكن أحد يعلم أن السنوات القادمة ستشهد أحداثًا تهزُّ الجزيرة كلها ، وأن قصة أرياط وإبرهة وذي نواس ما هي إلا مقدمة لبداية أخرى.

كان طفلٌ في مكة- لم يولد بعد - يتهيّأ ليغيّر وجه الأرض. وكانت الفيلة في معسكر الحبشة تستريح ، لا تدري أنها ستسير يومًا نحو بيتٍ لم يُقدَّر لأحدٍ أن يمسّه بسوء.

وكانت اليمن ، بين الخوف والرجاء ، تعيش لحظة زمنية معلّقة بين الماضي والقدر.

أما إبرهة فكان تلك الليلة يقف أمام نافذته ، ينظر إلى السماء المظلمة، هامسًا:

" سأجعل للعرب دينًا واحدًا، ولو على ظهور الفيلة ".

لكن السماء كانت صامتة . صامتة، لأنها تعرف ما لا يعرفه التاريخ .

أجنحةٌ فوق غمدان

كان الفجر يومها ينهض فوق جبال اليمن بخطى متعبة ، كأن كل صخرة في " برح الخفاء " تعرف سرًّا لا تريد البوح به . في الأزقة الملتوية بين سلحين وغمدان ، كان الناس يتناقلون الهمس كما لو كان سلعة محرّمة :الجيش الحبشي جاء ليبقى.

ولم يكن في الأمر شكّ.

فما عاد اليمن سوى إقطاعية تُغترف خيراتها ، ويمتدّ إلى نخاعها جشعٌ لم يعرفه أهلها حتى في زمن اليهوديّ الآفاق ، ذاك الذي كان يرضى بعشر معشر ما صار أرياط ينتزعه بلا رحمة.

وفي قلب هذه الفوضى، كان إبرهة يفتح عينيه على ظلمةٍ أشدّ سوادًا من الليل ذاته . ظلمة في الداخل ، ظلمة في الخارج ، ظلمة تسري إليه من أعماق كنيسة صنعاء ، ومن أعماق روحه التي اشتبكت مع الأسئلة.

منذ أسابيع والأسقف أسطونيان يعود من الحبشة وعلى كتفيه غبار الخيبة . قابل الملك فلم يسمع منه سوى ما رمى إليه أرياط وما نفثه إبرهة .

وما إن علم أرياط بالخبر حتى انفتحت شهيته للسلطة أكثر، وصار رضى النجاشي وقودًا يسكبه على نارٍ لم يكن لها أن تهدأ.

+

لماذا يتحوّل كل حاكمٍ إلى ظلٍّ غليظ ؟

هل يولد الناس ليُطحنوا بين ضروس الطامعين ؟

أقسم أنني لم أرد غير العدل ، ولكن ما أصعب العدل حين يكون السيف ناطقًا والسلطةُ عينًا لا ترى إلا نفسها.

كان يشعر أنّ البلاد تنزلق نحو هاوية من ظلم، وأن أرياط فقد البصيرة.

أو ربما، ربما لم يمتلكها يومًا.

+

الحوار الأول

وقف أرياط أمامه ، كتفاه العريضتان تحدقان فيه قبل عينيه ، وقال ساخرًا بصوتٍ فيه خشونة الجبال:

أرياط:

يا كاهن الحبشة ، أقصِر همّك على كهانتك ، ودع لي شؤون اليمن الدنيوية.

كأن الكلمات صفعة .

لكن إبرهة لم يرجع خطوة .

نظر في عينيه، وشيء ما كان ينكسر داخله، شيء يشبه آخر حدود الصبر.

إبرهة:

لا والله يا أرياط ، ما أسكت وأنا أراك تندفع في طريق البغي ، وسمعت شكايات أهل سلحين وغمدان عمّا أخذت من أموالهم .

أرياط:

إنما استوفيت من أموالهم ما نستحق من مكوسٍ وضرائب. وإلا فمن أين ننفق على الحملة؟

إبرهة (بمرارة:)

ما يصلنا من مولانا النجاشي يكفي ويزيد،

ضحك أرياط تلك الضحكة التي تُشبه سقطة حجر في بئرٍ معتم.

أرياط:

إذن فأنت يا إبرهة مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ اليمن من "الطغيان والاستبداد" كما قلت لأسطونيان الخائن!

+

كيف يمكن أن يختلط الحق بالهزل ؟

كيف صار الحديث عن العدالة نوعًا من الجنون ؟

وهل الإنسان محكومٌ أن يصمت حين يرى الدمّ ينساب في طرقات البلاد ؟

كان إبرهة يسمع كل ضربة قلب كأنها طعنة . ويشعر أنّ شيئًا ما يتشكّل في داخله ، شيء لم يكن يومًا يجرؤ على الاعتراف به. الرغبة في أن يقول " لا " بصوت يسمعه التاريخ.

+

أرياط (مقاطعًا):

لا تخدعني بنعومتك يا إبرهة . كأني لا أعلم أنك تتقرب من وراء ظهري إلى قواد الجيش ، وتُقيم لهم الصلوات في الكنيسة ، ثم تخلو إليهم لتحرّضهم علي! أليست هذه الفتنة التي حذرنا منها الملك؟

إبرهة (يحاول ضبط صوته):

يا أرياط، إنك تتخيّل ما لا وجود له. إنما جئتُ كي

أرياط (صارخًا):

أقسم بالمسيح! لا أفهم ما تريد . طلبتَ أن أطلق يدك في شؤون العقيدة ففعلت . أردتَ بناء البيع والكنائس فسعيتُ في مالها. أردتَ حمل الوثنيين على النصرانية فأعنتك. ماذا تريد أكثر بحق المسيح ؟

إبرهة:

أريد الإنصاف ، لأهل هذه البلاد ، ولقادة جيشنا قبل نفسي.

ارتفعت حاجبا أرياط ، كأن الكلمة مسّت وتراً سريًا فيه.

أرياط:

آه، لم أقل إنك تحرض القادة ؟

أمن ! لعلهم هم من يحرّضونك عليّ ؟

ماذا يريد هؤلاء أكثر ؟ أعطيتهم الضياع والقصور! بل قل لي : ماذا تريد أنت لنفسك يا إبرهة ؟

إبرهة:

لا أريد إلا ما يطالب به أهل اليمن ويوافقهم عليه قادة الحملة:

أن تكفّ عن غمس يديك بلا مبالاة في دمائهم وأموالهم.

أرياط (بغضبٍ جارف):

أنا حاكم هذه البلاد! ولا حق لأحد في محاسبتي!

إبرهة:

لهذا يطلب القادة مجلس مستشارين ، لا تُبتّ أمرًا إلا بموافقتهم.

أرياط (ساخرًا بحدة):

هذا هو الجنون بعينه. إن رضيتُ أنا فلن يرضى النجاشي.

إبرهة:

نكتب إليه، لنعرف رأيه.

أرياط (بصوت انقلب جليدًا):

أنا أعرف رأيه . جعلني صاحب الكلمة العليا ، وأوصاكم بطاعتي . فمن خرج عليها صار عاصيًا ، وحقّ عليه العقاب.

+

ها هو القيد يظهر ، قيدٌ لا يُرى ، لكن يُحسّ في الحلق مثل شوكة.

أهذه هي السلطة ؟ أن يصبح الإنسان جلّادًا دون أن يدري ؟ وأن يتحوّل صوت العدالة إلى جريمة ؟

يشعر إبرهة أن الأرض تميد تحت قدميه.

يشعر ببرودةٍ تتسلل إلى أطراف أصابعه.

يشعر بأن خطوات التاريخ تتوقف خلفه، تنتظر كلمةً منه، كلمةً واحدة،

إما يُقال بعدها إنه رجل ، أو يُقال إنه ظلّ رجل.

+

حلّ الليل، ورائحة المطر تتعانق مع رائحة الدم الكامنة في الهواء.

يجتمع بعض قادة الجيش في الخفاء ، يطالعون الوجوه كأنهم يقرأون مصائرها.

وإبرهة يقف بينهم ، لكن عقله كان في مكانٍ آخر، يسافر في دهاليز ذاته.

هل يُكتب مصير الأمم عبر كلمة تُقال في ساعة غضب ؟

أم عبر صمت يطول حتى يخنق صاحبه ؟

وأيّهما أخطر ؟

وفي مكانٍ آخر من القصر ، كان أرياط يسقي نفسه نبيذًا حامضًا ، ويضحك ضحكةً لا يعرف سببها ، كأنما يظن أن الغد سيأتي مطيعًا له كما جاء الأمس.

لكنّ الغد لا يسمع ، الغد يرى.

+

رائحة الحرب

في تلك الليلة ، لم ينم أحد.

لا إبرهة ، ولا أرياط ، ولا الجنود الذين بدأوا يشعرون أن البلاد تتهيأ لزلزال لن ينجو منه أحد.

ومع بزوغ الفجر ، كانت الطيور تطير من فوق غمدان مذعورة، كأنها تعرف ما لا يعرفه البشر.

لم يدرِ أحدٌ من سيقف مع من ، ولا من سيقف ضد من ، لكن الجميع أيقنوا أن الطريق بين الرجلين قد انقطع ، وأن الريح التي كانت همسًا أمس ، ستتحوّل غدًا إلى عاصفة.

عاصفة ستغيّر وجه اليمن إلى الأبد.

حين يحكم السيف ويهتف الصمت

كان الليل يهبط على صنعاء كأنّه وشاحٌ من رمادٍ ودخان ، يلتف حول القصور والحصون ، ويغمر الأزقّة التي فرغت من ضجيج الباعة ، وارتجفت من همسات الناس وهم يترقّبون الشرّ المتربّص خلف الأسوار .

لقد انقسم الجيش الحبشي على نفسه ، كما لو أنّ روحاً سوداء شقّته من صميمه ، فانشطرت الأخوّة القديمة إلى شطرين: شطرٌ يرفع راية **أرياط** ، فارس الحبشة ووريث مجد السيوف ، وشطرٌ يلوذ بـ **إبرهة** ، رجل الدين الذي جُبل على الحكمة ، لا على الخديعة.

ومع الانقسام ، اندفع كل فريق يتسابق في ضمّ القادة والجنود ، كباراً وصغاراً ، إلى صفّه.

ولكنّ الاختيار لم يكن بريئاً ؛ كانت الشائعات تزحف بين الخيام كالأفاعي.

" أقسم بالله ، إن إبرهة يجمع العُشور من المترددين على الكنائس "!

" بل هو يختلس الأموال التي يرسلها النجاشي لترميم الكنائس "!

وعلى الجانب الآخر:

" أرياط سيدكم، ألا ينهب أموال الحملة ؟ ألا يفرض ضريبة يزعم أنّها للجنود ؟ أيعرف أحدٌ ضريبة تُسمّى ضريبة الجنود ؟ "

وتسري شائعة ثالثة ، تحمل رائحة الإمبراطور البيزنطي الجديد يُسطانيوس:

" ألا تعلمون أنّ رسله يرشون إبرهة ليبني كنائس اليمن على الطراز البيزنطي لا الحبشي ؟ "

كانت الكلمات تُرمى كالسّهام ، تُحدث في صدور الجنود جروحاً لا تُرى ، وتوقظ في اليمنيّين خوفاً قديماً من أن تُسفك الدماء أمام أعينهم وهم لا يملكون دفعاً ولا تغييراً.

اضطرب الجيش، اضطرب إلى الحدّ الذي صار فيه كل جنديٍّ يتوجس من ظلّ رفيقه ، وكل قائدٍ يشكّ في ولاء مساعده. وانزوى أهل اليمن في بيوتهم ، ينتظرون لحظة الارتطام العظيم، تلك اللحظة التي توقعوا أن تأتي قبل عيد الفصح ، حين تشتدّ الرياح وتحتدم النفوس.

+

لكن داخل خيمةٍ بعيدة في إحدى زوايا المعسكر ، كان إبرهة يجلس وحده ، يحدّق في السراج الصغير .

كان الضوء يرتعش، كما يرتعش قلبه.

لم أُخلق لأكون ذئباً، أنا رجلٌ يبحث عن معنى ، لا عن سلطة.

هل يُعقل أن أمشي على جثث أبناء وطني لأبلغ غاية لا أدري إن كانت تستحق ؟

وما السلطة ؟ وما المجد ؟ وما هي حياة الإنسان إذا فنيت في صخب السيوف ؟

كان يسمع من بعيد صخب الجنود المترقّبين للمعركة ، فيتوتر النار في قلب الجيش تُوشك أن تنفجر،

وهو يعرف – في أعماق نفسه – أن الكفّة تميل نحو أرياط، فارس الحبشة المدجّج بثقة جنوده.

هنا قفز إلى ذهنه خاطرٌ مدهش، خاطر لم يكن يتوقع أن يقدِم عليه :

لماذا لا يذهب إلى أرياط ؟

وجهاً لوجه ؟

لماذا لا يضع السيف في غمده ، ويعرض عليه ما يحقن دماء الجميع ؟

نهض .لم يستأذن أحداً . لم يُعلِم أحداً.

كان كمن يسير وهو يتبع نجمة خفيّة تهديه من وراء السحاب.

+

وفي تلك الليلة، حين سكنت السماء إلا من أنين الرياح ، دخل إبرهة على خصمه.

كان أرياط جالساً في مجلسه ، تحيط به شمعتان كبيرتان تلقيان ظلالاً طويلة على الجدران ، فيبدو كهيئة ملكٍ خُلِق من الحجر.

رفع أرياط رأسه ببطء ، وقد اتسعت عيناه دهشةً وسخريّة:

أرياط:

إبرهة، في داري ؟

أيُّ خدعةٍ هذه ؟

والحرب بيننا على بُعد خطوة ؟

إبرهة، بصوت هادئ :

أنت تعلم يا أرياط أنني لست صاحب خدعة.

ابتسم أرياط ابتسامة ضيّقة ، نصفها سخرية ، ونصفها استهزاء.

كانت يدُه تعبث بمقبض خنجره ، لا خوفاً بل عادةً قديمة.

أرياط:

إذن، لماذا جئت؟ أهذا عن اتفاقٍ بينك وبين رجالِك؟

إبرهة:

لا أحد يعلم بمجيئي إليك . وأعلم أنّك ، رغم بغضك لي ، لا تغدر برجل يدخل دارك وحيداً.

لمعت عينا أرياط.

كان في جملته الأخيرة ما مست شيئاً داخله، شيئاً يشبه الكبرياء.

إبرهة :

يا أرياط، إني أكره أن يقتتل الجيشان ، أكره أن تُسفك دماء الأحباش ، وأهل اليمن ينظرون إلينا ونحن نفني بعضنا . لسنا هنا لنقتل بعضنا ، بل لنقيم دولةً للنجاشي.

ضحك أرياط ضحكة قصيرة، ثم قال :

أرياط:

ما الجديد ؟

لقد تحدثنا في هذا مراراً ، وأنت لا تريد إلا أن تفسد الأمور في اليمن . أراك ناعماً اليوم ، كأنك تعظُ رهباناً لا جنوداً.

اقترب إبرهة خطوة، وكأنه يحاول أن يرى قلب خصمه لا وجهه.

إبرهة:

بل جئتك بما أرجو أن تُصلح به حال الجيش الحبشي.

اعتدل أرياط في مجلسه ، وتلاشت سخريته قليلاً:

وما ذاك؟

إبرهة:

نحتكم إلى ما نعرفه في بلادنا حين يشتجر الخلاف بين قبيلتين:

مبارزة بين الزعيمين.

ساد صمتٌ ثقيل ، صمت كأنّه يقلب موازين الأرض.

رفع أرياط حاجباً ، وفي صوته شيء يشبه الدهشة:

أرياط:

مبارزة؟

أينا ظفر بصاحبه ، ملك اليمن ، وحقن دماء الجيش كلّه ؟

إبرهة، بثبات :

أجل.

هنا انحنت الشمعتان كأنهما تتسمعان . وتحرّك أرياط في مقعده، وقد ظهر في عينيه بريقٌ لم يُر فيه منذ شهور .

كان هذا الحديث يوقظ فيه شيئاً خامداً ، شيئاً يشبه شهوة المعركة ، أو حبّ المجد القديم.

أرياط، ساخرًا :

يا إبرهة ، هل تدبرت الأمر بحكمة ورويّة ؟أقسم بالمسيح ، إني لأشفق عليك من هذا الذي تعرضه بخفة لم أعهدها منك.

ثم أضاف بصوتٍ عالٍ، كمن يعلن حكماً:

أنا فارس الحبشة يا إبرهة .وإني لقاتلك إذا قبلتُ اقتراحك.

إنه تهديد ، لكنّ إبرهة لم يرتجف .بل شعر فجأة براحة غريبة ، كأن يد القدر وضعت على كتفه ، وقالت له :امضِ.

إبرهة:

عندها يكون الله قد حكم بيننا.

+

لكن داخل صدره، كان يضجّ :

هل أنا مجنون ؟ هل أذهب إلى الموت بإرادتي ؟ أم أنا أهرب من قدرٍ أعظم ؟ ألا أُشبه الآن الأنبياء الذين ساروا إلى مصائرهم دون أن يسألوا لماذا ؟ ربّاه، إن كان في هذا حقنٌ لدماء الأبرياء ، فاجعل في قدري رضاً.

ومن جانبه، كان أرياط هو الآخر يضطرب ، وإن لم يظهر منه اضطراب .

ففي داخله، كان صوتٌ خافت يسأل:

لماذا يقف هذا الرجل أمامي ولا يخاف ؟ أهو شجاع ، أم أحمق ؟ أم أنّ للقدر خططاً لا نفهمها ؟

ثم نفض تلك الأفكار ، فالفارس في داخله لا يسمح له بالضعف . ولكن حتى الفارس ، يخاف من الظلال التي لا تُرى.

+

خرج إبرهة من دار أرياط والليل ثقيـلٌ فوق كتفيه .كان يشعر أنه خرج من معركة قبل أن تبدأ ، أو كأنه لم يخرج على الإطلاق أخذ يمشي في الطرقات المظلمة ، وكل خطوة تصدر صدى كأنه طرقٌ على باب القدر. وفي داخله ارتفعت أصواتٌ متداخلة:

هل أكون أنا من يحقن الدماء ؟ أم أكون الشرارة التي تشعل النار ؟ أرياط ، ذاك الرجل الذي يعيش للمجد وحده ، هل سيقبل النزال ؟ وإذا قبل ، هل سأعود حيًّا ؟

كانت الريح تلفّ عباءته، وكأنها تحاول أن تمنعه من التقدّم ، لكنه كان يمضي.

وما إن عاد إلى معسكره ، حتى شعر أن الليل كلّه يراقبه . حتى نجوم السماء بدت كأنها جواسيس معلّقة على صفحتها السوداء.

+

وفي الصباح التالي ، انتشرت بين الجنود رواية الليل الغامضة ، همساً في البداية ، ثم بصوت مسموع :

إبرهة دخل دار أرياط وحده .

لم يقتله أرياط . ولم يحتجزه . بل خرج حراً.

بدأت الأسئلة تتطاير:

هل تصالحا ؟ هل اتفقا ؟ هل خاف أرياط من قتله ؟ أو خشي أن يتمرد الجيش ؟

وانقسم الناس في تفسير الأمر كما انقسموا من قبل في ولائهم. والتوتر، التوتر ازداد حدّة كأن الهواء صار ناراً خفيّة.

أما أهل اليمن، فقد وقفوا بعيداً عن المشهد ، يراقبون الأحداث بعيونٍ أنهكها القلق ، وقلوبٍ تدعو أن لا يأتي الفصح ومعه الدم.

+

في تلك الأثناء ، كان أرياط في خلوته يحدّق في سيفه الطويل . أصابعُه تشدّ على مقبضه بقوةٍ أكثر مما ينبغي.

سأقاتله ، سأثبت للجميع أنّ السيف يحكم ، وليس الكلام. ولكن ، لماذا أشعر أن شيئاً في داخلي يتردّد ؟

كان الفارس العظيم ، الذي لا يهتزّ أمام جيوشٍ بأكملها ، يجد نفسه مهزوزاً أمام رجلٍ واحد ، رجلٍ دخل داره بلا حراسة ، وتحدّث إليه بلا خوف ، وخرج بلا خدعة.

وقبل أن يهمس لنفسه بجوابه ، سمع طرقاً على الباب .كان أحد قوّاده، وقد جاءه بنبأ :

الجنود يتساءلون متى تكون المبارزة ،

لقد انتشر خبرها قبل أن نعلنها.

هزّ أرياط رأسه ، لم يعد يستطيع التراجع. لقد دخل في طريقٍ لا يعرف أين ينتهي.

+

وهكذا، كانت المبارزة أقرب مما ظنّ الجميع ، وكانت النهاية أبعد مما تخيّل أحد.

ففي صباحٍ لاحق ، بينما الشمس تتسلّق جبال اليمن ، وتصبغ حجارتها بلون الذهب ، وقف الجيشان يشاهدان الساحة الفارغة التي ستشهد القدر.

لم يكن أحد يعلم :

هل ستكون هذه آخر لحظة في حياة إبرهة ؟ أم آخر فصل في مجد أرياط ؟ أم بداية لشيء جديد ، لم يخطر لأحدٍ ببال ؟

كان الصمت ثقيلاً ، ثقيلاً إلى الحد الذي تسمع فيه نبضات الأرض.

وأهل اليمن ، كانوا ينتظرون في بيوتهم ، خلف أبوابٍ أرهقها القلق ، أن يسمعوا صوت السيوف.

لكن الساحة بقيت خالية.

لم يخرج أرياط . ولم يخرج إبرهة.

وقيل إنهما كانا يستعدّان ، وقيل إنهما تراجعا ، وقيل إن القدر كان يختمر خلف ستار من الغيوم.

+

وهكذا، بقيت اليمن معلّقة بين ظلّين : ظلّ الفارس ، وظلّ الراهب.

ولم يدرِ أحد أيّهما سيبتلع الآخر .ولم يعرف أحد أنّ اللحظة الحاسمة، لم تأتِ بعد.

وبقي الباب مفتوحاً، على حربٍ أو معجزة.

همس السيوف

كان الصباح في حضرة صنعاء القديمة ينهض كما ينهض شيخٌ حكيمٌ خرج من خلوته بعد ليلٍ طويل من التأمل . هواءٌ باردٌ كالحدّ القاطع لنصلٍ مُسنّ ، وشمسٌ خجلى تتلمّس أسوار القصر حيث يُطبخ التاريخ على نارٍ بطيئة ، تتقاطع فيها رغبات البشر مع لعنة القوة ، وتتلاقى الدماء بالعهود ، ثم تتبعثر كأوراق نخيلٍ جفّ ماؤه.

في تلك اللحظة كان أرياط ، القائد الذي تصارعت في صدره الرغبة بالملك والرغبة بالحب ، يقف قبالة خصمه الأزلي - إبرهة الأشرم - كأنهما صورتان انشقّتا من مرآة واحدة ، مرآةٍ تصدّعت منذ أن وطأت أقدام الأحباش أرض اليمن.

قال أرياط بصوتٍ كانت قسوته تخفي رعشة يقينٍ خطِر :

إذا قتلتك حزتُ مالك كلّه، ومالك كلّه إن قتلتك ، يا إبرهة .إنك بشحمك ولحمك لن تثبت لي جولة واحدة .كبراؤك وغرورك سيجعلانك صيداً سهلاً لسيفي ورمحي.

كان صوته أشبه بقرعٍ على باب القدر ، لكنه في داخله كان يسأل نفسه في صمتٍ حارق :

أحقاً سأقتله ؟ وهل يُقتل رجلٌ كهذا دون أن يجرّ خلفه ألف لعنة ؟ وهل يمكن للخيانة أن تُثمر ملكاً ؟ أم أنها بذرة تنبت شوكاً ، يطعن القلب قبل أن يطعن العدو ؟

أحسّ إرياط أن إبرهة لم يأتِ إلى هذا اللقاء إلا بعد أن أحكم خطته.

كان يرى في عيني الرجل بريقاً غريباً، خليطاً من السخرية والثقة ، كأنه يتكئ على شيءٍ خفي لا يعلمه غيره.

قال أرياط في وجلٍ حاول أن يخفيه :

ما أحسب إلا أنك قد دبّرت أمراً ، وتكيد كيداً. لكنني آخذ بما عرضتَ، بعد أن يشهد على ذلك رؤساء الجيشين«.

رفع إبرهة حاجبيه بسخريةٍ ثقيلة :

ولِمَ نشهد الجيشين على ما اتفقنا عليه ؟

حتى يكون لي عذرٌ عند النجاشي إن قتلتك وحزتُ مالك .

ابتسم إبرهة ، كانت ابتسامة رجلٍ يُخفي وراءها ألف صرخة.

لك ما تُحب، لنشهد رؤساء الجيشين على ما اتفقنا عليه«.

+

في الجانب الآخر من المشهد ، تقف **شيّارا** ، المرأة التي رُميت في هذه الحرب دون أن تُستشار ، كجوهرةٍ تتقاذفها سيوف الرجال.

كانت سعيدة – أو هكذا خُيّل إليها – بالاتفاق . ففيه خلاصها من زوجها إبرهة ، ذلك الرجل الذي صار ثقلاً على روحها كما صار لحماً وشحماً على جسده . وفيه أيضاً زواجها من أرياط، خليلها ، حبّها القديم الذي جعل قلبها يخفق كما تخفق أجنحة العصافير حين ترى الفضاء لأول مرة.

لكنّ السعادة لا تقيم طويلاً في قلبٍ يعرف الخوف . فالخوف كان يقترب منها مثل ظلٍّ طويلٍ يلاحقها أينما مشت.

رأت إبرهة ذات يوم يختلي بنفسه ، يحدّ السيف ، ويغمس النصل في قارورةٍ صغيرة ، ويمسّ ذبابته بحذرٍ قاتل . في تلك اللحظة شعرت أن قلبها يسقط في هوّة لا قرار لها.

تقدّمت إلى عبدٍ يُدعى عتودا ، رسولها الدائم إلى أرياط ، والذي عرف كل أسرارها دون أن يُسمّيها .

قالت له بصوتٍ مختنق :

يا عتودا ، اذهب إلى القائد أرياط خُلسة ، لا يراك أحد . قل له إن إبرهة يسمّ سيفه ورمحه ، فإذا كان يوم القتال فلا يقاتله إلا إذا تسلّح إبرهة بغير هذين.

نظر إليها العبد نظرةً غريبة حملت مزيجاً من الشفقة والمرارة. ثم قال :

يا مولاتي ، إنك حريصة على موت الرجل الذي يحبك، بسيف الرجل الذي يخدعك.

ارتجفت الكلمات في الهواء قبل أن تهوي على رأسها كالصاعقة . صرخت :

ويلك يا عتودا ! أي قولٍ هذا أيها العبد الزنيم ؟!

قال بهدوءٍ غريب ، كأنه يستخرج الكلمات من بئرٍ عميقة :

مولاتي، هل عهدتِ مني خيانة ؟

كلا ، وهذا ما يُدهشني .إنك تعلم أني أبغض إبرهة كل البغض ، وأحب القائد أرياط كل الحب .وأنت مطّلع على أحوالي معه ، وقد نالك الكثير من برّي . فكيف تزعم أنه يخونني ؟

تنفّس عتودا ببطء ، ثم قال :

ما قلتُ يا مولاتي إلا ما رأيتُ بعيني ، وما سمعتُ بأذني . أرياط ، يخونك . ويرسل أخاه بَسوتا إلى النجاشي يخطب ابنته الأميرة بيتاني .

سقطت الدنيا فجأةً فوق رأس شيّارا. كأن الزمن توقف ثم عاد يدور ببطءٍ مؤلم. ترددت الكلمات في ذهنها كالطبول :

أرياط ، يخونك، يخطب ابنة النجاشي ، بعد أن يقتل زوجك ، سيلقي بك في سجن صنعاء، حتى تموتي.

قالت بصوتٍ جافّ :

ولماذا يفعل ذلك؟ لماذا يخدعني؟ هو يحدثني كلما التقينا عن حبّه ، وعن ما يعدني به بعد زواجنا حين يُقتل زوجي !

ردّ العبد ببرود :

الرجل مخادع ، كاذب .كلّ ما أراده منك كان جسراً يعبر به إلى الملك . والآن، بعد أن قَرُب وقتُ القتل ، صار الملك أكبر من الحب ، وأعظم من وعدٍ قطعه لامرأة.

+

في تلك الليلة لم تستطع شيّارا النوم .كانت تتقلب في فراشها مثل ورقةٍ تتقاذفها الرياح .كان عقلها الباطن في داخلها كان يصرخ:

كيف؟ كيف يخونني أرياط ؟ كنتُ له قلباً ، كنتُ له سراً كنتُ له ملجأً من صخب الرجال .أكان كل ذلك مسرحية ؟ أأنا فقط جسر ؟ جسر من لحمٍ ودم ؟ أأنا امرأة تُستخدم ثم تُلقى ؟

أخذت تتذكر كلماته ، لمساته ، وعوده ، ضحكته حين يراها . هل كانت كل الضحكات مصنوعة ؟ هل العشاق يتقنون الكذب إلى هذا الحد ؟

ثم اتسعت الظلمات في صدرها ، وخرج من قلبها صوتٌ آخر ، صوتٌ أكثر وحشية :

سأنتقم ، سأحرقهما معاً ، لن أكون ضحية أحد.

+

في معسكر الجيشين كانت النار تُشعل الأقدار . الرماح مصطفّة ، السيوف تلمع ، والرجال يتبادلون النظرات المتوجسة. الجنود يعرفون أن معركة القائدين ليست معركة قوة فقط ، بل معركة حب وخيانة ، معركة نساء ورجال ، معركة عرشٍ يتسع لرجلٍ واحد فقط.

إبرهة كان واقفاً يشحذ روحه كما يشحذ نصل سيفه .فكره كان ينهمر:

هذا أرياط ، كان بالأمس أخاً في السلاح ، واليوم خصماً ، وغداً ربما جثة . شيّارا، تلك المرأة التي تبغضني وتحب خصمي ، أتكون هي سرّ كل هذا ؟ هل يمكن لامرأة أن تقيم دولة، أو تهدمه ا؟ ربما، فالملوك كثير ، أما النساء القادرات على إشعال حروب فهنّ نادرات.

ثم يضحك، ضحكة قصيرة . ليكن ما يكون . أنا لن أموت اليوم ، ليس قبل أن أرى كل هؤلاء يخضعون لي.

في الطرف الآخر ، كان أرياط يتهيأ للقتال ، لكن ترددا غريباً كان ينهش قلبه . هل خان شيّارا ؟ هل كان يريد حقاً الأميرة بيتاني ؟ أم أن الحياة السياسية تقسو على القلوب حتى تنسى ما أحبّت؟

لم يكن واثقاً من نفسه .وهذا أسوأ ما يمكن أن يواجهه محارب.

+

في ذلك الصباح، قبل أن يبدأ القتال ، تسللت شيّارا إلى داخل الساحة ، وقفت خلف الستار الكبير الذي يفصل الخيول عن مجلس القادة .كانت تريد أن ترى ، أن تتأكد ، أن تختار ضحيتها الأخيرة.

رأت أرياط يحمل سيفاً جديداً غير المسموم .

ورأت إبرهة يحمل سيفاً آخر، ناصعاً، صافياً، لكن السم كان يسري في مفاصله .توقفت أنفاسها.

هل أخبر عتودا أرياط أم لا ؟ لم تعرف . ولم تهتم ، لأنها في تلك اللحظة صارت ترى العالم بلونٍ واحد، لون الانتقام.

+

اصطفّ الجيشان، ووقف القائدان في ساحة تحيط بها الصرخات .الناس تتنفس ببطءٍ كأنهم يخشون أن تفرّ لحظة الحسم من بين أيديهم.

قال إبرهة :

ها نحن يا أرياط ، جولة واحدة، والفائز يأخذ كل شيء.

رفع أرياط سيفه ، وقال :

بل يأخذ ما يستحق<

لكن عينيه كانتا تبحثان عن شيّارا ، عن جوابٍ لا يريد سماعه.

انطلقت المبارزة. السيوف تتلاطم كالأمواج ، وصوت الحديد يختلط بصوت القلوب .

وبينما ترفرف الرداءات السوداء حول الساحة ، كانت شيّارا تراقب ، وكل خليةٍ في جسدها تصرخ :

من سيخون من ؟ من سيموت أولاً ؟ وأيّ موتٍ سيمنحني الخلاص ؟

المبارزة اشتعلت.

إرياط يهاجم بمهارةٍ لم يخنها الزمن ، وإبرهة يصدّ بضراوة رجلٍ يعرف أن لحظة موته ستكون لحظة ولادة ملك آخر . ثم في لحظة خاطفة ، لحظة واحدة فقط ، انزلقت قدم إبرهة ، فأصابته ضربة عميقة.

لكن السم اشتغل أيضاً ، ويد أرياط بدأت ترتجف .ثم سقط الاثنان معاً ، كأن القدر لا يريد لأحدهما أن يفوز.

كانت شيّارا تحدّق في المشهد بعينين جامدتين . لم تجرِ دمعة واحدة . لم تصرخ . لم تتنفس.

هل انتقمت ؟ هل خسرت ؟ هل كانت خيانة واحدة ، أم خيانات كثيرة ؟ أأنا الضحية ، أم الجلّادة؟

اقترب الجنود من الجثتين. لم يُدر أحدهم من مات أولاً، ولا من بقي على قيد الحياة.

والمشهد بقي معلّقاً، كما لو أن التاريخ نفسه توقّف ليُفكّر.

أما شيّارا ، فقد ابتسمت ابتسامةً غامضة ، ثم استدارت ومشت.

كان الليل يسدل ستاره، وكانت المدينة تستعد لولادة فجرٍ جديد، فجرٍ لا يعرف أحدٌ من سيحكمه.

وظلّ السؤال مفتوحاً:

من الذي انتصر حقاً، ومن الذي خُدع؟

شقّ الشفَة، وارتجاف التاج

قالت **شيارا** ، وقد أرخى الليل سدوله على الجبل ، وتكاثفت الظلال كأنها شهود صامتون على ما جرى :

إنك كاهن الحبشة ورجل دينها ، ولن يصدق النجاشي عنك ما قد يشيعه أعداؤك ، وما أحسبهم يجسرون على شيء إذا دانت لكم الأمور ، واستقر الملك في يدك كما استقر السيف في الغمد بعد طول اضطراب .

لكن كلماتها ، على ما فيها من ثبات ، لم تجد طريقها إلى قلب **إبرهة** . كان واقفًا عند فم الكهف ، يحدق في الفراغ ، كأن عينيه تبحثان عن شيء ضاع في العتمة ، أو عن روحٍ تركها خلفه على سفح الجبل.

الجبل الذي شهد الخيانة

سار الأمر يومئذٍ كما رسمه الثلاثة ، وكما دبّره العقل حين أغلق على القلب أبوابه . كمن العبد **عتودا** خلف صخرة سوداء ، حادة الأطراف ، تشبه أنياب وحش كامن. كان يربت على حربته المسمومة ، يداعبها كأنها وعد بالخلاص ، ويمني نفسه بطعنة نافذة في ظهر سيده ، طعنة واحدة تشتري بها الحرية ، ولو كان ثمنها دمه ودم غيره.

في أول القتال ، طُرد **إبرهه** أمام **أرياط،** فتظاهر بالهزيمة ، وانسحب بخطى محسوبة نحو الجبل. طمع أرياط فيه ، واتّبعه وقد غلب عليه نشوة التفوق ، وغشا بصره زهو القائد الذي يرى النصر قاب قوسين.

وحين ظن إبرهة أن خصمه بلغ من الضعف ما أراد ، هوى سيف أرياط.

ضربة واحدة ، لكنها لم تكن قاضية.

شقّ السيف وجه إبرهة شقًّا كالنار الملتهبة ، شطر شفتيه شطرين ، وترك أثرًا سيبقى شاهدًا على تلك اللحظة إلى آخر العمر.

ترنّح الكاهن، وتحامل على نفسه ، أقسم في سرّه ألا يسقط ، إلى الآن.

كانت عيناه تراقبان المشهد بقلق محموم ، حتى رأى ما انتظره : حربة عتودا تنغرس في ظهر أرياط ، ثم تخرج زجّها من صدره ، حمراء ساخنة ، كأنها قلبه المنتزع.

سقط أرياط ، وسقط معه آخر ما كان في إبرهة من وهم الطهارة .وخلصت اليمن للكاهن الغادر ، **إبرهة الأشرم**.

+

استقر الأمر لإبرهة ، لكن نفسه لم تستقر . الملك إذا جاء بالخديعة ، لا يعرف النوم.

كان الليل يزحف إلى صدره ، لا إلى فراشه . كلما أغمض عينيه ، رأى وجه أرياط ، ورأى الحربـة ، وسمع صدى ارتطام الجسد بالأرض ، كأنه يقع من جديد.

تمتم ، وصوته يخرج مبحوحًا ، مشقوقًا كما شُقّت شفتاه :

ويلي ، ويلي ، غدرتُ بالرجل ، وقتلته في غير جريرة .

اقتربت شيارا منه ، بثوبها الداكن ، وعينيها اللامعتين بثقة لا تعرف التردد . قالت بحدة مشوبة بالعقل :

أفق أيها الرجل ! ألم يكن هذا على اتفاقكما ؟ أوَلا ترى في المرآة ما فعل بوجهك وشفتيك ؟ وماذا فعلتَ أنت غير أن انتقمت لنفسك ؟ .

ضحك إبرهة ضحكة قصيرة ، يابسة ، بلا فرح :

والله ما فعلت غير أن فتحت أبواب الجحيم . أقتل رجلًا غدرًا وغيلة ، وأنا الكاهن الأكبر، الذي يدعو إلى حقن دماء المسيحيين ! بأي وجه أقف غدًا أمام المذبح ؟ وبأي لسان أرتل الصلوات ؟ .

+

سكتت شيارا لحظة ، ثم قالت بنبرة أشد صلابة :

وحتى متى تخرج إلى رجالك وأنت مفزع النفس ، مشتت البال ، تنظر إلى ما أمامك بعينين زائغتين خائفتين ؟ ألا تخشى أن ينصرفوا عنك ، ويختاروا سواك ؟ أ يذهب كل ما دبّرنا أدراج الرياح ؟ إنك برعبك هذا تفتح الفرصة لأعدائك ، ليتهموك عند النجاشي .

اهتز جسد إبرهة ، كأن الاسم وحده صفعة :

والله يا شيارا ، ما أنام من رعب هذه الصورة .أتصور النجاشي وقد ثارت شكوكه ، فأرغى وأزبد ، وصار كالفيل الهائج ، حتى يطحنني تحت أقدامه ههنا ، هنا بالذات ، حيث أقف .

كان داخله ساحة حرب أخرى.

الكاهن يصرخ : الدم حرام.

والملك يرد :الملك لا يقوم إلا بالدم.

قال في نفسه ، دون أن يسمع أحد

هل كنتُ كاهنًا حقًا ؟ أم كنتُ طامعًا لبس ثوب القداسة ؟ هل استخدمتُ الرب طريقًا إلى العرش ، أم استخدمتُ العرش طريقًا إلى الرب ؟

+

قالت شيارا ، وهي تضع يدها على كتفه ، بثبات العارفين بنفوس الرجال :

لا تشغل بالك بما يقرره النجاشي إذا ثارت شكوكه . إني أعرف كيف أُسكن غضبه ، وأكسب لك رضاه .

نظر إليها طويلًا ، وكأنه يراها للمرة الأولى . قال بمرارة :

وأنتِ، أتشعرين بشيء ؟ ألا يطاردك وجه أرياط ؟ ألا تسمعين صوته في الليل؟.

أجابت بلا تردد :

أنا أسمع صوت المستقبل ، لا صوت الموتى تحت التراب . الضعفاء وحدهم ترعبهم الأشباح التي يتخيلونها ، أما الأقوياء

فيصنعون تاريخهم بأيديهم ، بعزيمتهم ، ولو كُتب بالحبر الأسود والدم الأحمر معًا .

ساد صمت ثقيل . في ذلك الصمت، أدرك إبرهة حقيقة مرعبة:

أن الذنب لا يقتل ، لكنه يعلّم صاحبه كيف يحكم.

قال أخيرًا ، بصوت أقل ارتجافًا:

ربما ، ربما كان هذا قدري . أن أكون شقًّا في وجه التاريخ ، كما كان الشق في شفتي .

ابتسمت شيارا ابتسامة خفيفة ، وقالت :

والتاريخ لا يذكر الشقوق ، بل يذكر من بقي واقفًا بعدها .

+

خرج إبرهة إلى الليل .كان القمر عاليًا ، يشبه شاهد قبر أبيض.

لم يختفِ الذنب ، لكنه تعلم كيف يخفيه تحت تاج السلطة.

ومنذ تلك الليلة ، لم يعد الكاهن كما كان ، ولا الملك كما سيُروى عنه . بل صار رجلًا يمشي بين المذبح والسيف ، يعرف أن الطريق إلى السماء ، قد يمر أحيانًا فوق جثثٍ لا تُنسى.

بين غضب العرش وخبث الخلاص

دخل الخبرُ عليه كريحٍ سوداء ، لم تستأذن ، فاقتلعت هدوءَ القصر من جذوره . كان النجاشي جالسًا على سريره العالي ، تحته خرائطُ اليمن ، وفوقه ظلالُ المُلك ، وحوله صمتٌ ثقيل لا يُسمع فيه غير خفق قلب السلطة حين تُصاب في هيبتها.

صاح غاضبًا ، وقد نهض فجأة كأن في صدره نارًا انفجرت:

يعدو على أميرٍ لي، ويقتله بغير أمري؟

كان صوته كالسيف ، لا يجرح الهواء فحسب ، بل يجرح كل من سمعه . تراجع الحرس خطوة ، وانحنى الوزير وقد أدرك أن لحظة التاريخ هذه لا تُقال فيها الكلمات اعتباطًا.

قال الوزير ، متريثًا ، كمن يمشي بين ألغام:

—يا مولاي، من جاء بالخبر يقول إن أرياط قُتل في مبارزةٍ عادلة بين الرجلين ، على مرأى من الأجناد ، بعد أن اتفقا على ذلك ، وأشهدا عليه الأحباش في اليمن .

التفت النجاشي بعينين تقدحان شررًا:

دون إذنٍ مني ؟

سكت الوزير لحظة ، ثم قال ، وقد غلّف الحقيقة برداء النصح:

يا مولاي ، إنك ما عهدتَ في إبرهة إلا الميل للحق والإنصاف . وقد علمنا أن أرياط صار في الناس سيرةً لا ترضيك ، كما لم يرضَ عنها أهل اليمن . استصفى أموال الناس ، واعتدى على حرماتهم.

ضحك النجاشي ضحكةً قصيرة ، مرّة ، لا فرح فيها:

هذا أمرٌ أحكم فيه لوحدي . ولم أفوّض إبرهة بحكمٍ بدلاً عني. ولو كان أرياط حيًّا لحججته فيه.

ثم مال بجسده إلى الأمام ، كأنما يريد أن يلتهم الوزير بنظره:

أيظن إبرهة أنه ناجٍ من يدي وقد قتل أحد عمالي دون إذني؟ ليس لمثل هذا عندي غير القَتل.

قال الوزير ، وقد بدأ القلق يتسرّب إلى صوته:

يا مولاي ، إنك إن قتلته شتّتَّ أمر الأحباش في اليمن ، بعد أن عاد الجنود إلى الطاعة تحت أميرهم الجديد ، إبرهة.

لكن رأي الوزير - الذي اشترت شيارا ذمّته قبل أن يخرج من داره - لم يرق للنجاشي. فصاح فيه صيحةً أخرسته:

لا يكلمني أحد في إبرهة!

ثم رفع يده يقسم ، والقَسَم إذا خرج من فم الملوك صار قدرًا:

أقسم ألا أدع اللعين يهنأ بجريمته ، لأطأنّ أرضه ، وأجززنّ ناصيته ، وأريقنّ دمه !

+

وفي أقصى اليمن ، كان إبرهة يقف على شرفة قصره ، ينظر إلى الجبال كمن يبحث فيها عن جوابٍ إلهي . صار فجأة طريد مولاه ، وسقطت عنه عباءة الطاعة التي طالما التفّ بها . شعر أن الأرض التي فتحها بحد السيف تضيق عليه الآن ككفن.

اغتمّ، وداهمته لوثةٌ دينية غريبة ، كأن روحه انكسرت بين الإيمان والسياسة . ارتدى مرقعة رهبان الصحارى ، واعتزل مجالس الحكم ، وقضى ليله ونهاره بين صلاةٍ وبكاء ، يرسل إلى النجاشي الرسائل ، مستغفرًا تائبًا ، يكتب فيها لا بمداد الحبر ، بل بمداد الخوف.

وفي إحدى الليالي ، جلس إلى زوجته شيارا ، وعيناه غارقتان في ظلال الجنون ، وقال بصوتٍ مرتجف :

يأتي إلى ذهني يا شيارا، أن ألقي بنفسي من أعلى جبلٍ في اليمن.

تأملته شيارا طويلًا. كانت امرأةً لا ترى الأحداث كما يراها الرجال ؛ ترى خلفها ، وتحتها ، وما بعدها. ابتسمت ابتسامةً صغيرة، لا تخلو من سخرية خبيثة ، وقالت:

أنت يا زوجي العزيز تحزن لما لا يحزن له قائد فعل للنصرانية مثل ما فعلت . وإنك إن سافرت إلى الحبشة ، وعرضت صفحتك وصفحة أرياط على النجاشي ، لأنصفك وثبّتك على أمور اليمن.

انتفض إبرهة، كمن لُدغ:

أذهب إلى النجاشي؟ كأنك لم تعلمي بقسمه!

قالت بهدوء:

أعلم أنه أقسم أن يسير بجيشٍ يطأ به أرض اليمن، ويجزّ ناصيتك، ثم يريق دمك.

سكت لحظة، ثم صرخ:

ولا ترين في هذا ما يروّع ، ويذهب بنفسي كل مذهب؟

اقتربت شيارا منه ، ووضعت يدها على كتفه ، وهمست بصوتٍ كمن يحيك قدرًا:

يا إبرهة ، ما يكون لي عندك إذا خلّصتك مما أنت فيه من همٍّ وكرب؟

نظر إليها بعينين زائغتين:

ما أحسب أحدًا قادرًا على أن يخلّصني من قسم مولانا النجاشي.

ابتسمت ، تلك الابتسامة التي لا تنتهي لها حيلة:

ألم أخلّصك من قبل من عدوك أرياط ؟ سأخلّصك هذه المرة أيضًا من غضب النجاشي، إذا وعدتني بخراج منطقة ظفار كلها.

لم يتردد:

فهي لكِ يا شيارا، وإن كنت لا أدري ماذا ستفعلين.

قالت بثقة:

دع هذا لزوجتك التي لا تنتهي لها حيلة . والآن قم ، فافعل ما أنصحك به.

وما ذاك؟

قم إلى حجّامك ، فيفصدك ، ويضع بعض دمائك في قارورة ، ويحلق رأسك ، ويسلّمني ما حُلق من شعرك . وبعدها اتجه للسفر.

وحدك؟

قالت ، وقد استدارت لتخفي بريق الانتصار في عينيها:

وحدي يا إبرهة . وسنرى، إنني سوف أعود إليك بصفح النجاشي، وقرار تثبيتك على أمور اليمن كلها.

+

وفي تلك اللحظة ، لم يكن إبرهة مجرد قائدٍ خائف ، بل إنسانًا عالقًا بين التاريخ والقدر . كان يدرك في أعماقه أن الملوك لا يحكمون وحدهم ، بل تحكمهم الرموز: ناصيةٌ تُجز ، ودمٌ يُراق ، ورسالةٌ تُكتب بلغة الخضوع.

وهكذا بدأت الحيلة، حيلةٌ ستُكتب لاحقًا في سجلات التاريخ، لا كحكاية دهاءٍ أنثوي فحسب، بل كمرآةٍ لزمنٍ كان فيه الشعر والدم والسلطة يتقاسمون مصير الرجال.

انحنى القسم أمام سحر المرأة

لم تكن شيارا امرأةً تُرى فحسب ، بل كانت حدثًا . كانت جمالًا له هيئة إنسان ، ودلالًا يمشي على قدمين ، وصوتًا يعرف كيف يتسلل إلى مواطن الضعف في القلوب قبل الآذان . غندورةٌ ، نعم ، لكن غندرتها لم تكن فُجورًا مبتذلًا ، بل فنًّا مدروسًا ، يختلط فيه الذكاء بالإغواء ، والسياسة بالغناء ، والهمس بالحكم.

أما النجاشي، ملك الحبشة ، فكان شابًا لم يكتمل صلده بعد. ملكٌ بالإرث ، حاكمٌ بالسيف ، لكن قلبه ظل فتيًّا ، سريع الخفقان ، هشًّا أمام الجمال ، ينسى عند عتبة العيون كل ما حفظه من وصايا الإيمان ، وكل ما شدّه عليه الكهنة من عهود التقوى. لم يكن كافرًا ، لكنه كان إنسانًا ، والإنسان ، حين يفتنه الجمال و يسحره ، يبرر لنفسه كل شيء.

دخلت شيارا القصر في مساءٍ مائلٍ إلى الذهب.

كانت الشمس توشك أن تنسحب من النوافذ العالية ، تاركة خلفها خيوطًا خجلى من الضوء ، كأنها تشهد على ما سيُقال ، ثم تأبى أن تكون شاهدة زور . ارتدت شيارا ثوبًا لا يشي بالإسراف ، لكنه لا يعتذر عن الفتنة . شعرها منسدل كليلٍ مداريّ ، وعيناها ، كانتا تعرفان أين تقفان ، ومتى تنخفضان ، ومتى ترفعان الملك من عرشه دون أن تلمسه.

وقف النجاشي حين رآها ، لا لأن البروتوكول فرض ذلك ، بل لأن شيئًا في داخله انتفض.

قال في نفسه:

ما بال هذا القلب يخونني كل مرة ؟ أأنا الملك أم أسير النظرة ؟

ابتسمت شيارا ، تلك الابتسامة التي لا تُمنح مجانًا ، وقالت بصوتٍ مكسوٍّ بالدلال :

أيها الملك،

وكانت تعرف أن النداء نصف الحكم.

إنما كان أرياط عبدك ، وإبرهة عبدك ، فاختلفا في أمر اليمن ، ولم يختلفا في طاعتك.

كان اسم إبرهة كحجرٍ يُلقى في ماء ساكن.

تغير وجه النجاشي ، لا غضبًا ، بل تذكرًا لقسمٍ قطعه في لحظة احتدام ، حين بلغه أن إبرهة تمرّد ، وأن الدم سال بين الأحباش في أرضٍ بعيدة استعصت طويلًا.

تابعت شيارا ، وقد اقتربت خطوة ، خطوة واحدة فقط ، لكنها كانت كافية لتضييق المسافة بين الملك ونفسه:

ولو رأيت ، يا مولاي ، كيف يسوس إبرهة الأمور ، وكيف يضبطها ، وكيف وطّد لك أركان الحكم في اليمن ، تلك الأرض التي استعصت علينا زمنًا طويلًا ، لغفرت له زلته ، ولصفحت عن زوجي.

كلمة زوجي لم تأتِ اعتباطًا.

كانت سهمًا أخيرًا ، موجّهًا إلى ما تبقى من إنصاف في قلب الملك.

لكن النجاشي تراجع إلى قسمه ، إلى صورته كملكٍ لا ينكث العهود.

قال، وفي صوته غيظٌ مكتوم:

ولكني أقسمتُ ، يا شيارا ، أقسمتُ بالله.

رفعت حاجبيها ، كأنها تتعجب من بساطة الاعتراض.

فلم جعل الله الكفارات، يا مولاي؟

سكت.

كان السؤال بسيطًا ، لكنه خطير.

قال في نفسه:

أهي تفقه في الدين أم في النفس ؟ أم أنهما شيء واحد حين تُحسن المرأة اللعب ؟

قال بحدّة مصطنعة:

ما أقسمتُ عليه لا كفارة له إلا أن أبرّ به.

اقتربت أكثر. صار صوتها أعمق ، أقل دلالًا ، أكثر عقلًا:

وهل جئتُ إلا لأراك ، أيها الملك ، تبرّ بقسمك؟

ارتبك.

رفع صوته فجأة، كمن يريد أن يقطع الخيط قبل أن يلتف حول عنقه:

أأقتل إبرهة ؟ أهذا ما تريدينه يا شيارا؟ أأقتل زوجك ؟

لم تجبه فورًا.

أخرجت لفافة صغيرة من حرير، وقدمتها له بيدٍ ثابتة.

لقد أقسمتَ، أيها الملك ، أن تجزّ ناصيته ، ثم تريق دمه.

فهذه ناصيته ، قد أرسلها إليك.

وهذه قارورة، فيها بعض دمه.

فتح النجاشي اللفافة.

شعرٌ أسود ، غريب في حضوره ، كأن صاحبه يقف هناك ، مجردًا من رأسه.

نظر إلى القارورة.

دم.

رمز الدم أقسى من الدم ذاته.

ضحك فجأة.

ضحكة عالية ، لكنها لم تخرج من صدرٍ مطمئن.

ما أحسب أن هذه إلا بعض حيلك ، أيتها العزيزة شيارا ، ولكني أقسمتُ أيضًا أن أطأ أرضه.

كانت تنتظر هذه اللحظة.

أخرجت كيسًا صغيرًا ، متواضعًا، كأنه لا يحمل شيئًا.

في هذا الكيس ، يا مولاي ، بعض تراب أرض اليمن . ضعه تحت قدميك ، وسر عليه ما شئت ، فتكون ، يا مولاي، قد بررت بقسمك.

سكت القصر. حتى الجدران بدت كأنها تنصت.

نظر النجاشي إلى التراب ، ثم إلى شيارا ، ثم إلى نفسه.

كان يعلم في قرارة روحه أن هذا تحايل .

وكان يعلم أيضًا أنه يريد هذا التحايل.

قال في داخله:

أأنا أبحث عن العدل ، أم عن مخرج ؟ هل أقف عند حرف القسم ، أم عند روحه ؟ أم أني فقط أهرب من قتل رجلٍ لأن امرأةً أحبته ؟

وضع التراب تحت قدميه . خطا . خطوة واحدة ، ثم أخرى.

قال في نفسه:

لقد بررتُ بقسمي.

وقال قلبه:

لقد خضعت.

لم تكن حيلة شيارا هي التي انتصرت ، بل سحرها. ذلك السحر الذي يجعل الملك يرى في ضعفه حكمة ، وفي تراجعه رحمة ، وفي شهوته سياسة.

رضي عن إبرهة . وأقرّه على أمر اليمن . لكن بثمن.

قال لها ، وقد عاد إلى عرشه:

تبقين في الحبشة، يا شيارا.

مستشارتي، الدائمة.

انحنت.
لم تكن انحناءة خضوع ، بل انحناءة انتصار.

خرجت من القصر ، وهي تعلم أن التاريخ لا يُكتب بالسيوف وحدها، بل بالهمسات ، وبالنساء اللواتي يفهمن الرجال أكثر مما يفهم الرجال أنفسهم.

أما النجاشي، فبقي وحده . ملكًا ، لكنه كان يعلم ، في أعماقه ، أن ناصيةً قُصّت ، ودمًا أُريق رمزًا . لكن شيئًا في داخله هو الذي انحنى حقًّا ذلك اليوم.

الحجر .. ينافس القلب

لم يكن إبرهة الأشرم يومئذٍ مجرد والٍ على اليمن ، بل كان فكرةً تمشي على قدمين ، وطموحًا يتقدّم قبل جيشه ، وظلًّا ثقيلاً للنجاشي يُلقيه على أرض الجنوب العربي. استقرت له السلطة ، وانحنت له الرقاب ، وسكتت السيوف ، فصار بلا منازع ، غير أن السكون في صدره لم يكن سكون المنتصر، بل قلق رجلٍ يعرف أن السلطان الذي لا يُرضي من فوقه آيلٌ إلى الزوال.

كان الليل قد أرخى سدوله على صنعاء ، والنجوم تلمع كعيونٍ تتجسس على أفكار الملوك . جلس إبرهة في قصره ، متكئًا على أريكةٍ من العاج ، يتأمل نار المشاعل وهي تتراقص ، كأنها أفكاره المتضاربة . حدّث نفسه بصوتٍ خافت ، كأنه يخشى أن يسمعه الجدران:

النجاشي ، ذلك الرجل الذي لا يُغضبه شيء بقدر ما يُرضيه الولاء . ماذا أُهديه ؟ أرض ؟ وقد ملك منها ما شاء. ذهب ؟ وهو لا يفتن به. نساء ؟ حتى لو راقت في عينيه امرأة غير شيارا ، فلن تكون إلا متعة عابرة ، لا ، لا بد من شيءٍ أبقى ، شيءٍ يُكتب في التاريخ .

عندها أشار بيده إشارةً قصيرة ، فدخل الراهب زنجال ، طويل القامة ، نحيل الوجه ، بعينين غائرتين كأنهما رأتا من الدنيا ما يكفي لاحتقارها . كان زنجال صاحب إبرهة ومستشاره في أمور الدين والسياسة معًا ، خليطًا عجيبًا من الزهد والدهاء.

قال إبرهة ، وهو يرفع رأسه ببطء:

يا زنجال، يا صاحب الأسرار ، لقد ضاق صدري. أريد أمرًا يرضى عنه مولانا النجاشي ، فلا يغضب عليّ، ولا يشك في ولائي.

ابتسم زنجال ابتسامةً خفيفة ، وقال بصوتٍ هادئ كصوت الكهنة في صلواتهم :

يا سيدي الكاهن الأكبر ، لا أرى شيئًا يلين له قلب البطارقة في الحبشة ، ويجعل النجاشي راضيًا عنك ، مثل أن تنشر دين المسيح في جزيرة العرب كلها.

سكت إبرهة لحظة ، ثم ضحك ضحكةً قصيرة فيها مرارة:

يا عزيزي الراهب ، لقد أعيا ذلك أباطرة بيزنطة ، وأكاسرة الفرس. حاولوا اقتحام الصحراء من الشمال ، فردّتهم الرمال المخادعة ، والعواصف السافية ، ومجاهل الفيافي التي لا نعلم عنها شيئًا: من يسكنها ؟ وأين يخرجون من أحشائها ؟ .

اقترب زنجال خطوة ، وكأن كلامه سيخرج من أعماق التاريخ لا من فمه :

أما أنا فأعلم ، أيها الكاهن الأكبر. أعلم أنهم قومٌ رحّل ، لا يستقرون في مكان، لكن ، - وتوقف لحظة ، متعمدًا أن يشد انتباه إبرهة - ، إن أفئدتهم جميعًا تهوي إلى قريةٍ وسط الصحراء ، تسمّى مكة.

تقلص جبين إبرهة ، وسأل بفضولٍ مشوبٍ بالحذر:

ولمَ مكة هذه على وجه الخصوص ؟

قال زنجال ، وقد لمع بريق غريب في عينيه:

بها بناء ، يزعمون أن إبراهيم النبي شيده بيتًا لربه . يحجّون إليه كل عام ، يوقّرونه توقيرًا لا يوقّرون به شيئًا سواه . لا يجسر أحد ، مهما بلغ في الشراسة والغدر ، أن يُحدث فيه حدثًا.

شعر إبرهة بشيءٍ يتحرك في صدره ، شيء بين السخرية والاهتمام. قال :

ومن يعبدون يا زنجال ؟

أجاب الراهب:

لكل قبيلة معبود ، يضعون رسمه وتمثاله حول ذلك البناء الذي يسمونه الكعبة.

ردد إبرهة الاسم كمن يتذوق لفظًا غريبًا:

الكعبة ، أرأيتَ هذه الكعبة يا زنجال ؟

كلا ، ولكنها - يا سيدي - مهبط أفئدتهم جميعًا ، على ما بينهم من ثارات وخرافات وعداوات . لا يجتمعون على شيء كما يجتمعون عليها . هو بيت ربهم فيما يزعمون ، ويغتدونه بأرواحهم ، ولا يختلفون في أمره قط.

ساد الصمت . كان إبرهة يسمع دقات قلبه بوضوح ، كأن فكرةً ما بدأت تتشكل ، حجراً فوق حجر. قال أخيرًا:

فإذا صرفناهم عن هذا البيت ، أيتفرق أمرهم ؟ ويسهل علينا غزو بلادهم ، وإدخالهم في المسيحية ؟

رفع زنجال رأسه ، وقال ببطء :

ذلك، أيها الكاهن الأكبر ، ما لم يفلح فيه أكاسرة الفرس ولا أباطرة بيزنطة.

وهنا انتصب إبرهة واقفًا ، كأن نارًا اشتعلت في عروقه ، وقال بصوتٍ حاسم :

أما أنا فسأفلح فيه يا زنجال.

نظر إليه الراهب بدهشةٍ ممزوجة بالإعجاب. تابع إبرهة ، وعيناه تلمعان بطموحٍ جارف:

سأبني في صنعاء كنيسةً لم يرَ هؤلاء القوم مثلها بهاءً وجمالًا وروعة. كنيسة تصرفهم عن كعبتهم ، وتكسر شوكة وحدتهم. سيحجّون إليها ، ويتفرقون عن تلك القرية التي تجمع كلمتهم وتوحد أمرهم. ماذا يسمونها قلتَ ؟

مكة، أيها الكاهن الأكبر.

كررها إبرهة هذه المرة بلهجة تحدٍّ :

مكة،

ثم عاد يجلس، لكنه لم يعد الرجل ذاته. كان في داخله حوارٌ لا يسمعه أحد:

إنهم يعبدون حجرًا ، وأنا سأبني لهم حجرًا أعظم. إن كانوا قد وحّدوا قلوبهم حول بيتٍ في صحراء قاحلة ، فسأغريهم ببيتٍ يلمع بالذهب ، وتفوح منه رائحة البخور ، وتُرفع فيه الصلوات بلغة السماء كما نزعم. أيمكن للقلب أن يخون ما ألفه ؟ نعم ، إذا أُغري بما يراه قبل أن يشعر به .

نهض زنجال كمن يبارك قرارًا تاريخيًا ، وقال:

إذن يتهيأ لك أمران ، يا سيدي: بناء الكنيسة ، ثم الاستعداد للتوسع شمالًا ، والاستيلاء على قرى العرب ومدنهم.

أومأ إبرهة برأسه ، لكنه كان ينظر إلى البعيد ، إلى صحراء لم تطأها قدماه ، وإلى بيتٍ لم يره ، ومع ذلك شعر أن بينه وبينه موعدًا مؤجلًا.

وهكذا، في تلك الليلة ، لم يُبْنَ حجرٌ واحد ، لكن الفكرة وُلدت ، والفكرة - حين تسكن عقل السلطان - تكون أحيانًا أشد فتكًا من الجيوش.

كان التاريخ ، من حيث لا يدري إبرهة، يبتسم ابتسامةً خفية ، كمن يرى رجلاً يظن أنه يحارب بيتًا من حجر، وهو في الحقيقة يتحدى معنىً أعمق من أن تهدمه الفيلة أو تزينه الكنائس.